

تفسير سورة « ن »

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ فَسَتَبْصُرُ وَيُصِيرُونَ ﴾ ﴿ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴾ ﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول « سورة البقرة » وأن قوله ﴿ ت ﴾ كقولہ ﴿ مر ﴾ ، ﴿ ق ﴾ ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحريم القول في ذلك بما أغنى عن إعادته .
وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقولہ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣ - ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبه لخلق على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : يعني : وما يكتبون . وقال عن ابن عباس : أي : وما يعملون . وقال السدي : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام . وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم . وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما اكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد » . وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد ^(١) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي : يكتبون ، كما تقدم . وقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي : لست ، ولله الحمد ، مجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جنتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبید على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير مقطوع كقولہ : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] أي : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس : أي : وإنك لعلی دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، والسدي ، والربيع بن أنس ، وغيرهم . وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين - عن خُلُقِ رسول الله ﷺ . فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن . هذا حديث طويل . وقد رواه

(١) المسند (٥ / ٣١٧) والترمذي (٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) .

الإمام مسلم في صحيحه^(١). وسأيت في سورة «المزمّل» إن شاء الله تعالى. وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن^(٢). وروى ابن جرير عن سعد^(٣) بن هشام: قال: أتيت عائشة أم المؤمنين قلت لها: أخبريني بخلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن. أما تقرأ: ﴿وَأَنْتَ لَمَلَكٌ خَلَقْتَ عَظِيمٌ﴾. وقد روى أبو داود والنسائي نحوه^(٤). وروى ابن جرير عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، فسألته عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. هكذا رواه أحمد والنسائي عن معاوية بن صالح، به^(٥).

ومعنى هذا: أنه، عليه السلام، صار امتثال القرآن أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، ففهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبّله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسّت خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان البين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ^(٦). وروى البخاري عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير^(٧). والأحاديث في هذا كثيرة، ولا يبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمال».

وقوله: ﴿فَسْتَهْرَوْتُمْ وَيَبْرُونُ بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ﴾ أي: فتعلم يا محمد، وسعلم مخالفيك ومكذوبك: من المفتون الضال منك ومنهم؟ وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ﴾ [القمر: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَأَنَا أَوْ بِأَيْكُمُ لَمَلَكٌ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ﴾ أي: الجنون. وكذا قال مجاهد، وغيره. وقال قتادة وغيره: ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ﴾ أي: أولى بالشیطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسْتَهْرَوْتُمْ وَيَبْرُونُ﴾ وتقديره: فتعلم ويعلمون، أو: فسُخِّرَ وَيُخْبِرُونَ بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ. والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمَكْذِبِينَ﴾ وَدَوًّا لَوْ تَدْنُهُنَّ فَيَدْهِنُونَ ﴿ وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ هَمَّازٌ مَسْمُوعٌ يَنْبِئُ بِمَنْعِ النَّاسِ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ أَيْمِيرٍ ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِيرٌ ﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿ إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَا يَنْتُنَّا قَالَكِ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ سَمِئَهُ عَلَ الْقُرْطُورِ ﴿

(١) عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٢٤٥) ومسلم (١٣٩/ ٧٤٦).

(٢) المسند (٦/ ٢١٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، وصححه الألباني.

(٣) في المخطوطة والطبوعة: «سعيد» وهو خطأ.

(٤) ابن جرير في التفسير (٢٩/ ١٣) وأبو داود (١٣٥٢) والنسائي (١٦٥١).

(٥) ابن جرير في التفسير (٢٩/ ١٣) والمسند (٦/ ١٨٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ١١١٣٨).

(٦) البخاري (٦٠٣٨) ومسلم (٥١/ ٢٣٠٩).

(٧) البخاري (٣٥٤٩).

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .
﴿ وَذُؤُوا لَوْ تَدَّهَنُ فِدْيَهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : لو تُرَخَّصَ لَهُمْ فَيُرَخَّصُونَ . وقال مجاهد : ودوا لو تركن
إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْمِينَ ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهافته إنما يتقى بأيمانه
الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . قال ابن
عباس : الميهن : الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . وقال الحسن : كل حلاف مكابر مهين
ضعيف . وقوله : ﴿ هُمَازٍ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب . ﴿ مَثَاءِ بَنِيهِمْ ﴾ يعنى : الذى
يمشى بين الناس ، ويحرس بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الحالقة ، وقد ثبت فى
الصحيحين عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقيرين فقال : « إنيهما ليعذبان وما يعذبان فى
كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث . وأخرجه بقية
الجماعة ^(١) . وروى أحمد عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قنات » .
رواه الجماعة إلا ابن ماجه ^(٢) . وقوله : ﴿ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير
﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فى تناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أُنِيمٍ ﴾ أى : يتناول المحرمات .
وقوله : ﴿ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ ﴾ : أما العتل : الفظ الغليظ الصحيح ، الجموع المَنُوعُ . وروى الإمام أحمد
عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبتكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَّصِفٌ لو
أقسم على الله لا يره ، ألا أنبتكم بأهل النار ؟ كل عَتَلٌ جَوَاطٌ مستكبر » . وقال وكيع : « كل جَوَاطٌ
جمعطرى مستكبر » . أخرجه فى الصحيحين وبقيت الجماعة ، إلا أبا داود ^(٣) . وروى الإمام أحمد عن
عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « كل جمعطرى جواط مستكبر
جماع مناع » . تفرد به أحمد ^(٤) . قال أهل اللغة : الجمعطرى : الفظُ الغَلِيظُ ، والجَوَاطُ : الجَمُوعُ المَنُوعُ .

وأما الزنيم فروى البخارى عن ابن عباس : ﴿ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ ﴾ قال : رجلٌ من قريش له زئمة
مثل زئمة الشاة ^(٥) . ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزئمة من بين أخواتها .
وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدَّعَى فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . وقال ابن
عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زئمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس
ابن شريق الثقفى ، حليف بنى رهرة . وقال ابن أبى نجيج عن ابن عباس : إنه زعم أن الزنيم المُلْحَقُ
النسب . وقال سعيد بن المسيب فى هذه الآية : هو المُلصق فى القوم ، ليس منهم . وقال عكرمة :
يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزئماء . والزئماء من الشياه : التى فى عنقها هتان معلقتان فى
حلقها . وقال سعيد بن جبيرة : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها . والزنيم :
الملصق . والآقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم : هو المشهور بالشر ، الذى

(١) البخارى (٢١٨) ومسلم (٢٩٢/ ١١١) وأبو داود (٢٠) والترمذى (٧٠) .

(٢) المسند (٥/ ٣٨٢) والبخارى (٦٥٠٦) ومسلم (١٠٥/ ١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) والترمذى (٢٠٢٦) .

(٣) المسند (٤/ ٣٠٦) والبخارى (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣/ ٤٦) والترمذى (٢٦٠٥) وابن ماجه (٤١١٦) .

(٤) المسند (٦٥٨٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٧) .

يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد لنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره .

وقوله : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تَقَالَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كدب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذُرِّيٌّ وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَبِيدًا . سَاءَ مَقَرُّهُ صُعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَبَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ مَأْصِلِهِ سَقَرٌ ﴾ (المدثر: ١١ - ٢٦) . وقال تعالى هاهنا : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴾ . قال ابن جرير : سنين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمّة على الخراطيم . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفى رواية عنه : سيما على أنفه . وكذا قال السدى . وقال ابن عباس : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيخطم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ : سمّة أهل النار ، يعنى : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخراطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متجه .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ ائْتَدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانظَرُوا وَهَمَزَنَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَاوًا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيدٍ ﴿٢٥﴾ فَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَصَاوُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّ إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يَدِينَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا بِمَلْمُومٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا مثل ضربته الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، واعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بمئة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبرناهم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذّن ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴾ أى : فيما حلفوا به . ولهذا حشّهم الله فى إيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس : أى كالليل الأسود . وقال الثورى ، والسدى : مثل الزرع إذا حُصد ، أى : هنيئاً يساً . ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذّاذ ، أى : القطع ﴿ أَنْ ائْتَدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرنهم عبثاً ﴿ فَانظَرُوا وَهَمَزَنَافَتُونَ ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم .

ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانظُرُوا لَهُمِْ تَخَافُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبي : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرومون . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الشار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهَمَةً ، لا يُتَنَفَعُ بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : بل هذه هى ، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب . ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد ابن كعب ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وقتادة : أى : أعدلهم وخيرهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : لولا تسبحون . قال السدى : وكان استناؤهم فى ذلك الزمان تسيحاً . وقال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، اتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اعتدنا وبغينا وطفينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استفله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بتقيص قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والريح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، ويخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾ أَتَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٢﴾ سَلَّمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمًا ﴿٢٣﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا

بِشْرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال : ﴿ أَقْبَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أي : أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ؟ أي : كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْبِرُونَ ﴾ يقول : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، متضمن حكما مؤكداً كما تدعونه ؟ ﴿ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْبِرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴾ أي : أممكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، ﴿ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴾ أي : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتنون ، ﴿ سَلَّمْتُمْ لَهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أي : قل لهم : من هو المتضمن التكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : من الأصنام والانداد ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشْرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ خَشَعَةً أَبْصَارَهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلُّهُمْ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٣٦﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْتَ لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٣٨﴾ أَمْ تَسْتَلْهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَقَرِّيرٍ مُتَقَلِّبُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٠﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني : يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وعن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : هو يوم كرب وشدة . رواه ابن جرير ، ثم روى عن ابن مسعود - أو : ابن عباس ، الشك من ابن جرير : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : عن امر عظيم . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر . وقال ابن عباس : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ : هو الأمر الشديد المقتطع من الهول يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلُّهُ ﴾ أي : في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بتقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلّى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبعاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خراً لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني : القرآن . وهذا تهديد شديد ، أي : دعني وإياه مني ومنه ، أنا أعلم به كيف استلرجه ، وأمه في غيه وأنظره ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله

كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال : ﴿ أَهْسَبُونَ أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ بِهِ مِنْ ثَأَلٍ وَتَيْنٍ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الانعام: ٤٤] . ولهذا قال هاتنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : وأخزهم وانظرهم وأمدهم ، وذلك من كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف امرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لِمِ يَقْلَتِهِ .» ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (١) .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرُومٍ مُّقْتَدُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» (٢) . والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذهم منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جنتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعتاد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿١٥٦﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ نَذَرَكُمُ يَوْمَ تَبَيَّنَ لِمَنْ رَيْبُ لَيْلِيذٍ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١٥٧﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَرْتَفُونَكَ أَبْصَارِهِمْ لِمَا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ﴿١٥٩﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولاتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ، أى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مغاضباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشروود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسيح البحر بما فيه للعلی القدير ، الذى لا يرده ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الانبیاء: ٨٧] . قال الله : ﴿فَاصْبِرْ لَهُ وَجِئْنَا لَهُ مِنَ الْقَوْمِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الانبیاء: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُخْرَجُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ، ١٤٤] وقال هنا : ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : وهو مغموم . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبنى لاحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ورواه البخارى . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَرْتَفُونَكَ أَبْصَارِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : ليرتفونك بأبصارهم ، أى : يعينونك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك ليغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمائته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق ، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة : روى ابن ماجه عن بريدة بن الحصيب قال :

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١) .

(٢) عند الآيتين (٤٠ ، ٤١) .

(٣) المسند (٣٧٠٣) والبخارى (٤٦٠٣ ، ٤٦٣١) ومسلم (٢٣٧٦ / ١٦٦) .

قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حمة ». هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة ^(١) . وروى هذا الحديث الإمام البخارى وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين موقوفاً ^(٢) . وروى مسلم عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين ، وإذا اغتسلتم فاغسلوا ». انفرد به دون البخارى ^(٣) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ، يقول : « اعوذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام ». أخرجه البخارى وأهل السنن ^(٤) . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان وأعين الإنس . فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك . ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى : حسن ^(٥) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أريقك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أريقك . ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبداً داود ^(٦) . وروى الإمام أحمد عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق ». أخرجاه ^(٧) . وروى الإمام أحمد عن عبيد بن رفاعة الزرقى قال : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفاسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين ». وكذا رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ^(٨) . وروى ابن ماجه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين . ورواه البخارى ومسلم ^(٩) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالسهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) ابن ماجه (٣٥١٣) ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) .

(٢) البخارى (٥٧٠٥) وأبو داود (٣٨٨٤) والترمذى (٢٠٧٥) .

(٣) مسلم (٤٢ / ٢١٨٨) .

(٤) البخارى (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذى (٢٠٦٠) .

(٥) ابن ماجه (٣٥١١) والترمذى (٢٠٥٨) والنسائى (٥٤٩٤) .

(٦) المسند (٣ / ٢٨ ، ٥٦) ومسلم (٤٠ / ٢١٨٦) والترمذى (٩٧٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) .

(٧) المسند (٢ / ٣١٨) والبخارى (٥٧٤٠) ومسلم (٤١ / ٢١٨٧) .

(٨) المسند (٦ / ٤٣٨) والترمذى (٢٠٥٩) .

(٩) ابن ماجه (٣٥١٠) والبخارى (٥٧٣٨) ومسلم (٥٥ / ٢١٩٥) .